

تاريخ الإرسال: 2022/01/14 تاريخ القبول: 2022/04/20

تاريخ النشر: 2022/04/24

الأدب ما بعد الكولونيالي: تجربة الذات والموضوع

Postcolonial literature

-the experiment of subject and object-

د. حبيبة مسعودي

جامعة جيجل (الجزائر) ؛ Messaoudihabiba27@gmail.com

المخلص:

تعالج هذه الورقة البحثية موضوع الأدب ما بعد الكولونيالي - تجربة الذات والموضوع - الحاضر في ثقافات عديدة ولا سيما مجتمعات العالم الثالث، التي رغم تخلصها من السلطة الفعلية للاستعمار/ المحتل إلا أنها تعاني من امتدادات سيطرة المركز على الهامش على معظم الأصعدة، فأخطبوطيته تحاول دوما بسط سيطرته السياسية والفكرية والثقافية لتبقى الذات مستسلمة ساكنة، في حين يسعى ذلك المهيمن إلى التوضع في كنف التجليات الوجودية للذات قصد زعزعة كيان الأنا (ذات المجتمعات المستعمرة) وتوليد التوتر واللا استقرار.

ومما يبدو لنا أن الأدب ما بعد الكولونيالي تتمثل فيه الإبداعات المدركة للذات المتمحورة حول حيز إبداعي، تجسد فيه نزعة التحرر من الوجود الفعلي للمستعمر (خروجه من المنطقة/ الاستقلال)، وفي الوقت ذاته معاناة تلك الذات من امتداداته الاستلابية وتمركزه عبر المرايا المتعددة الخاصة بتلك المجتمعات المستعمرة وكأننا بالذات نتفرع منها ذاتين: ذات شاهدة وذات فاعلة للمشهد رغم وجود الصوت الراض للمستعمر، وهذا ما سنحاول تبينه في هذا المقال.

الكلمات المفتاحية: الأدب، مابعد الكولونيالية، المركز، الهامش، المابعدية.

Abstract:

This research paper deals with the topic of postcolonial literature - the experience of subject and subject - present-day in many cultures, especially third world societies, what, despite their liberation from the current power of colonialism/occupiers, suffer from the extensions of the center's dominance on the periphery at most levels. its bifurcation always tries to extend its political, intellectual and cultural control to keep the self submissive and static, while that dominant seeks to position itself within the existential manifestations of the self in order to destabilize the entity of the ego (the ego of societies affected by colonialism) and generate tension and instability. It appears to us that post-colonial literature is represented by self-aware creations centered around a creative space, embodying the tendency of liberation from the actual existence of the colonizer (his exit from the region/independence) and at the same time the suffering of that self from its invasive extensions and its centralization through the multiple mirrors of those colonial societies It is as if we in particular section out from other-selves: a witness and a factor of the scene despite the presence of the rejecting voice of the colonizer and a recipient of the scene, and this is what we will try to adopt in this article.

Keywords: literature, post-colonialism, center, margin, Aposteriorism.

Messaoudihabiba27@gmail.com ، د. حبيبة مسعودي

1. توطئة:

لاشك أن الأدب مابعد الكولونيالي يلعب الدور الحاسم في هذه الدراسة ولا سيما من ناحية توضيح الرؤى إزاء تصورات محددة تجعل لها حيزا معرفيا يتجلى للمشتغل عليه أو المهتم به من خلال التركيبة الواضحة للمصطلح المركب، والمتشكلة من (الأدب)، و (المابعد)، و (الكولونيالية)؛ إنه اصطلاح في صلب الاصطلاح غير المنفصل عن الدائرة التواصلية المنطوية على النظام الإبلاغي للصور التعبيرية ذات الحمولة الدلالية المرتبطة بخلفيات معرفية وشحنات فكرية معينة في طريق رسم الإستراتيجية الفاعلة في تشكيل الدائرة الفكرية.

وللدخول إلى مختبر هذه الدوائر الكبرى: (الأدب، المابعدية، الكولونيالية، الدائرة الفكرية، الدائرة التواصلية، الدائرة الفكرية) تتشكل لنا جدليات متباينة تتمحور في نسج بنائها ووجودها وعلاقتها الحضارية والثقافية. وليس ثمة شك بأن هذه الصلات أو العلاقات تحظى بأهمية كبرى لإدراك طبيعة الدائرة ذاتها في تقصي مكانتها في الوجود الإبداعي المابعد الكولونيالي.

1- مصطلح الأدب (الأخطبوطية والنمذجة):

ومن الممكن - هنا- أن ننطلق في دراستنا هذه من مصطلح الأدب بغية استجلاء بعض أبعاده الدلالية التي تعيننا في البحث في حيثيات هذه الدراسة على اعتبار أنه يعد من « الفنون الجميلة، أدواته الكلمة، وهو يشترك مع غيره من الفنون في العديد من الخصائص، والسمات ويفترق عنها في سمات أخرى، فالفنون الجميلة جميعا تهدف إلى إحداث المتعة، والتأثير في نفس المتلقي والأدب بوصفه فنا من هذه الفنون يتفق معها في هذه الغاية ولكنه يختلف مع بقية الفنون في أن أدواته هي الكلمة، والكلمات في مجال الأدب تحمل دلالات متعددة، وحالات متباينة لدى كل متلق لهذا العمل أو ذاك»¹

فمن الواضح أن هنالك نقاط تلاقي واختلاف بين الأدب وسائر الفنون الأخرى ولا سيما في الغاية (إحداث المتعة)، إلا أنه يتكئ على شبكة من الكلمات ذات الدلالات المختلفة بحيث يعبر بها المبدع عن معطيات موقفية معينة ، وحالات إبداعية عديدة تقتضي وجود قارئ أو متلق متمرس يستنطق الدلالة ويستخرج الجمال (الأدبية) .

ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن الأدب ما هو إلا تلبية >> لطموحات الروح الإنسانية ، لا بما هي محكومة بحتميات القانون وعبوديات الواقع ، بل لكونها خروج عن هذه العبوديات باتجاه حرية الخلود ، إنه بالتالي تعبير مطلب الاستحالة الذي لا يكون ... و لكنه يكون ؟ وهذا لا يعني أن الأدب و الفن يتجاهلان كلياً العقل المحض ، فالروح الإنسانية التي هي مركب انفعالات الكائن بتراجيديا وجوده، تتخلق هي أيضا في العقل وتقوم به ، تماما كما ينهض هو عليها ... غير أن لكل منهما في "حوار الوجود " طريقة المستقلة نسبيا... وهنا (...). تقع خصوصية الفعلية الأدبية «².

والواقع أن التحرر في الكتابة (حرية الخلود) يدفع إلى الاستقلالية / إلى التجدد / إلى الحركة نتيجة احتوائه على إرادة التغيير و إرادة الثبات في الوقت نفسه، كيف لا ومركب انفعالات الكائن مع وجوده تمضي من العقل لتعود إليه وكأننا بالأدب والفن يتعانقان بسكون واستقرار (استقرار - ثبات) كما قد يتعانقان بحركة وتغيير (لا استقرار - تجدد) ويبقى ذلك دوما في حمى ملكة العقل.

وفي هذا التوجه لا بأس أن نذكر بقول " رينيه ويليك René Wellek " في هذا المجال: « إن مصطلح الأدب **Littérature** أو الآداب **Lettres** قد فهم في العصور القديمة وعصر النهضة على أنه يشمل جميع الكتابات النوعية التي لها ادعاء ما بالخلود ، والرأي بأن هناك فنا للأدب يشمل الشعر و النثر بمدى كونه

تخيلاً خيالياً (...) ويستبعد المعلومات أو حتى الإقناع البلاغي، والمحاكاة التعليمية، أو السرد التاريخي، لم ينبثق إلا ببطء في القرن الثامن عشر، وإن مناقشة الذوق، ونهوض متذوق الفن، واختراع مصطلح علم الجمال (...) كل ذلك وأكثر منه قاد إلى كتاب كانط "نقد ملكة الحكم" (...) وذلك البحث الذي قدم صيغاً واضحة للتمييز ما بين الجميل والجيد الحقيقي والمفيد، وساهم النهوض البطيء لمقام الرواية (...) في إقامة مفهوم للأدب مواز لمفهومي الفنون التشكيلية والموسيقى اللذين ما برحانا حتى اليوم»³.

ومن الملفت للانتباه أن الأدب يحدث لذة فنية للمشغل عليه / القارئ / المتلقي؛ كونه يحمل فضاء تركيبياً تستثمر فيه -إن صح التعبير- (الكلمات، والأبنية، الترميز، الجماليات التصويرية، الطاقات العبيرية، العاطفة، الخيال... الخ). والجدير بالذكر في هذا المقام أن «الأدب صورة و مادة ما في هذا شك ولكن صورة الأدب كما نراها ليست هي الأسلوب الجامد وليست هي اللغة، بل هي عملية داخلية في قلب العمل الأدبي لتشكيل مادته وإبراز مقوماته... وبهذا الفهم الوظيفي للصورة تتكشف أمامنا ما بينها وبين المادة من تداخل وتفاعل ضروريين (...) إنه ليس لغة ومعاني، بل هو تركيب عضوي يتألف من عمليات بنائية تتكامل فيها الصورة و المادة تكاملاً عضوياً حياً»⁴.

وفي ضوء هذا الطرح نشير إلى أن الأدب يحمل جسور التواصل و الحوار بين الصورة و المادة وهي جسور تحمل عدم تجاوز العلاقات الداخلية الماثلة في جوهر العمل الأدبي والتي ينطوي عليها النظام التركيبي العضوي المعتمد على فسيفساء جمالية تتبلور من خلال العمليات البنائية ومدى تماسكها والجمع بين الصورة والمادة .

إذاً كان هذا هو حال الأدب فماذا عن ما بعد الكولونيالي ؟

3 - مصطلح ما بعد الكولونيالي (ما بعد الوجود التدميري و ازدهام الذات):

من الواضح أن الأمر يستوجب علينا الحديث عن هذا المصطلح قصد الوقوف على تجليات أبنيته بكل تعقيداتها في إنتاج الأدب وما له من إمكانات كامنة في أساليب الحدث الإبداعي عنه أو ما يعرف بـ «تركيب كليات جديدة»⁵ .

ومما يبدو لنا أن ما بعد الكولونيالي / ما بعد الاستعمار يحيلنا إلى فترة الاستقلال والتخلص من السيطرة الاستعمارية على كل الأصعدة، وبخاصة إذا تم التسليم بأن هذا المصطلح المركب من (المابعد) و (الكولونيالي) يدل على « حركة تاريخية وتحليلية، ذات باعث سياسي يتصارع من الكولونيالية ويقاومها بهدف إبطالها على المستويات المادية ، والتاريخية والفكرية والثقافية والسياسية»⁶

وكأننا بوجود صراع قائم ما بين الكولونيالي وما بعد الكولونيالي، بين صورة المجتمعات في فترة الاستعمار والانتقال إلى مرحلة الميراث الثقافي الكولونيالي - إن صح القول- وما يمثله من جسر توأصلي بين الما قبلية والما بعدية، ومن هنا نجد صراعا يسيرا - وفق تصورنا- في خط مستقيم عميق يتم فيه التعرض للما كان قصد بناء الكينونة أو استشراف الكينونة، حيث ينعكس لنا الرفض التام لأنواع الاستبداد، والسيطرة، وطمس الهوية والرغبة في التحرر وإثبات الذات والصرح الحضاري وفق ما تقتضيه تيارات الحياة.

ولما كان الأمر كذلك رأينا أنه من الطبيعي أن ننوه على ما ذكره "رامي أبو شهاب" في دراسته المعنونة (ما بعد الكولونيالية: المنظور النقدي و المقاربة المنهجية) حول مصطلح مابعد الكولونيالية / ما بعد الاستعمار « دراسة آثار الاستعمار/ الكولونيالية على الثقافات والمجتمعات ،وهو مجال يعني بكيفية غزو الدول الأوربية» لثقافات "العالم الثالث" وكيفية السيطرة عليها، ومن ثم يبحث أيضا في كيفية استجابة ثقافات العالم الثالث من خلال المقاومة، أو الرفض يشار إلى ما بعد الكولونيالية يمكن

وصفها بأنها نظرية لدراسة الممارسات السياسية - الثقافية، وتتمر بثلاث مراحل عامة هي:

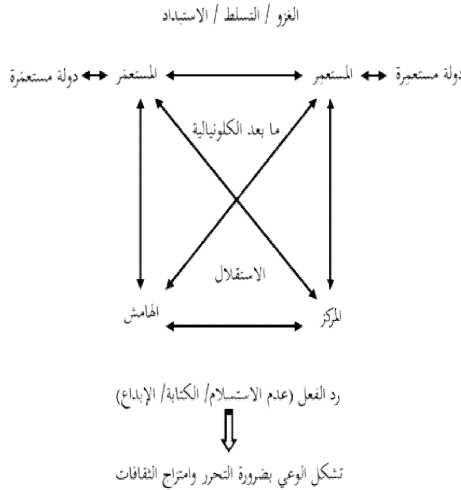
1- الوعي - في البداية- بالدونية الاجتماعية والنفسية والثقافية لكون المرء في دولة مستعمرة.

2- الكفاح لأجل الاستقلال الاثني و الثقافي و السياسي.

3- ووعي متزايد بالاختلاط و الامتزاج الثقافيين»⁷.

ولا يفوتنا هنا أن نشير هنا إلى فترة الاستعمار، الغزو الهيمنة، الاستبداد، التسلط... الخ، وهذا كله يبرز لنا في الممارسات التي قام بها العالم الغربي ضد دول العالم العربي (المركز على الهامش/ ورد الهامش على المركز)

الشكل الأول: تسلط المركز ورد فعل الهامش



ألا نلاحظ من خلال هذه الترسيم أن مصطلح (الما بعدية) يوحي لنا بالما سيكون، وكأننا بحدوث حدث ننتظر ما ينجم عنه أي افتراض «نتيجة بمعنيين: زمني كالتقدم فيما بعد، وإيديولوجي كحلول شخص أو شيء محل آخر (كالاستئصال)، إن المعنى

الثاني هو الذي وجده نقاد المصطلح مثير للجدل ، فإذا ما كانت أشكال جور الحكم الاستعماري لم تمح بعد، فربما يكون من السابق لأوانه إعلان زوال الاستعمار، فبلد ما يمكن أن تكون ما بعد استعمارية (بمعنى أنها رسمياً مستقلة) واستعمارية جديدة (بمعنى أنها لا تزال (أو ثقافياً تابعة) في الوقت ذاته «⁸. ويبدو أن صورة المستعمر يقف مستقبلاً مصيره وفق وجود نغمة الرغبة بالتححرر، فتكون بذلك نتيجة الجدل حول المصير تعكس الرؤية نحو المستقبل في ضوء الظروف المتاحة، ومن ثم تبرز النتيجة كمحور يحرك خط الجدل بين الأفكار والتوجهات الجديدة لما بعدية بوصفها تمثل دائرة الحراك، وبذلك نذهب إلى أن مصطلح (ما بعد الكولونيالية) كان محل أخذ و عطاء بين الدارسين ، وهذا " دوغلاس روبنسون Douglas Robinson " يذكر بأنه يمكن تناول الحدود المفهوماتية لهذا المصطلح المركب من (الما بعدية) و(الكولونيالية) انطلاقاً من الحدود الزمنية أو الفترة التاريخية التي تنطوي عليها فنحدها في نقاط -كما ذكرها - ننتاولها على النحو التالي:

1.3 التحديد المفهوماتي الأول:

« 1- دراسة مستعمرات أوروبية السابقة منذ استقلالها: أي كيف استجابت لإرث الكولونيالية الثقافي، أو تكيفت معه، أو قاومته، أو تغلبت عليه خلال الاستقلال، وهنا تشير الصفة " ما بعد الكولونيالية " إلى ثقافات ما بعد نهاية الكولونيالية، و الفترة التاريخية التي تغطيها هي تقريبا النصف الثاني من القرن العشرين، [ويمكن أن نسمي هذه الدراسات: دراسات ما بعد الاستقلال] «⁹.

لعل المدقق في الوحدات اللغوية التي يحملها هذا التحديد المفهوماتي الأول عند "دوغلاس روبنسون" يظهر له ضرورة الانطلاق من احترام خصوصية فترة الاستقلال والتحرر الفعلي من المستعمر أو بصورة أدق (ما بعد الاستقلال)، دون تجاهل انعكاساته على المجتمعات ومقوماتها (اللغة، المعتقد، الهوية، التاريخ، الثقافة... الخ) .

3. 2 التحديد المفهوماتي الثاني:

« 2- دراسة مستعمرات أوروبا السابقة منذ استعمارها: أي الكيفية التي استجابت بها لإرث الكولونيالية الثقافي، أو تكيفت معه أو قاومته، أو تغلبت عليه منذ بداية الكولونيالية وهنا تشير الصفة ما بعد الكولونيالية إلى ثقافات ما بعد بداية الكولونيالية، والفترة التاريخية التي تغطيها تقريبا الفترة الحديثة، بدءا من القرن السادس عشر [ويمكن أن نسمي هذه الدراسات هنا دراسات ما بعد الاستعمار الأوروبي]»¹⁰ ومن البديهي أن ما ورد في هذا التحديد يعد - في اعتقادنا - إشارة إلى الإرث الثقافي في المرحلة الكولونيالية وما تلاها من مسار تاريخي وفق رؤية متحركة ومتغيرة تسهم في تجسيد التواصل التراثي بين الماضي والحاضر فتكون بذلك قابلة للتشكيل وإعادة التشكيل.

3.3 التحديد المفهوماتي الثالث:

«3- دراسة جميع الثقافات (المجتمعات / البلدان / الأمم): من حيث علاقات القوة التي تربطها بسواها من الثقافات (المجتمعات / البلدان / الأمم)؛ أي الكيفية التي أخضعت بها الثقافات الفاتحة الثقافات المفتوحة لمشيئتها؛ و الكيفية التي استجابت بها الثقافات المفتوحة لذلك القسر أو تكيفت معه، أو قاومته، أو تغلبت عليه، وهنا تشير الصفة ما بعد الكولونيالية إلى نظرتنا في أواخر القرن العشرين إلى علاقات القوة السياسية والثقافية، أما الفترة التاريخية التي تغطيها فهي التاريخ كله، [ويمكن أن نسمي هذه الدراسات هنا: دراسات علاقات القوة]»¹¹ من الواضح أن ثقافة (المجتمعات / البلدان / الأمم) تنتطوي على توجهاتها الفكرية المتباينة، وبخاصة إذا تم الإقرار بأن «بناء روح الإنسان بالثقافة هو أساس التحديث»¹².

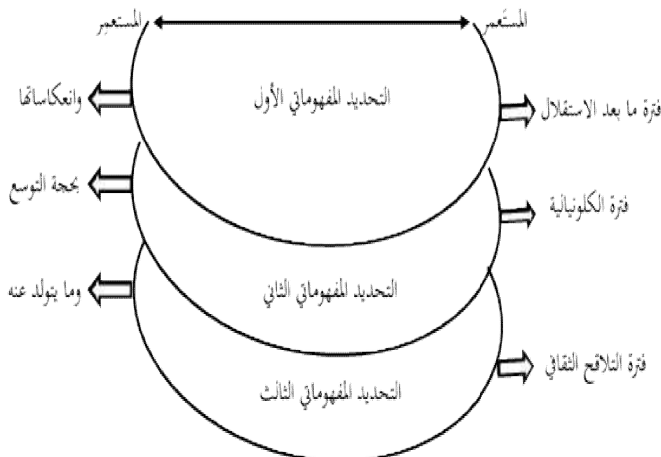
فالثقافات إذن تحضر هنا على اعتبار أنها حاملة لصفة التطور والنماء، ومتفاعلة مع التغيرات التي تتوافر عليها الممارسة الحياتية والحضارية، وشاملة لكل المعطيات التي تميز مجتمعا عن مجتمع آخر في حدود العلاقات الكولونيالية أو ما بعدها - حسب" دوغلاس روبنسون -" وعلاقات القوة التي أخضعت بها ثقافات

المستعمر ثقافات المستعمر ، وكيفية تجاوب الأخيرة مع الأولى إما بالقسر أو بالتكيف أو المقاومة أو التغلب والانتصار .

فحيثيات الوجود المختلفة الخاصة بمصطلح ما بعد الكولونيالية - وفق ما ذهب إليه صاحب هذه التحديدات المفهوماتية - تتحكم في علاقة المستعمرات الأوروبية بالمجتمعات المتعددة ، ويبدو جليا أن هذه العلاقات بدورها ليست من نمط واحد؛ بل يظهر لنا أنها تتخذ الأشكال ذاتها التي تتخذها العلاقات الماثلة بين المركز المهيمن / المسيطر على الهامش المستضعف / المسلوب. ومن هنا بدأ بجلاء أن معظم ما تم الإشارة إليه يمكن أن يشكل تصور البعد المعرفي لما بعد الكولونيالية سواء أعلق الأمر بـ :

- دراسة مستعمرات أوروبية السابقة منذ استقلالها
 - أم دراسة مستعمرات أوربا السابقة منذ استعمارها
 - أم دراسة جميع ثقافات (المجتمعات / البلدان/ الأمم) المتباينة،
- وتقضي ثنائية المغايرة و التمايز إلى أبعد درجة ممكنة قصد بلوغ ما يتولد منها من أبعاد مستحدثة، يتم استخراجها من بيانات مختلفة ذات أنظمة اجتماعية خاصة . ويمكن أن نلخص ذلك فيما يلي:

الشكل 2: التحديدات المفهوماتية لمصطلح ما بعد الكولونيالية



4. الأدب ما بعد الكولونيالي (تجليات الأنا أم تحول للذات أم وعي بالموضوع؟) :

ويمكن إدراك تلك التحديدات وما تشغله من استكشافات معرفية لمصطلح ما بعد الكولونيالية من خلال الإشارة إلى أن النظرية المابعد الكولونيالية تبدو أنها « طريقة في النظر إلى القوة بين الثقافية و التحولات النفسية الاجتماعية التي تحدثها ديناميات الهيمنة والإخضاع المتوائمة والانزياح الجغرافي واللغوي، وهي لا تحاول أن تفسر كل الأشياء في هذه الدنيا؛ بل تقتصر على الظاهرة الواحدة المهمة المسيطرة على ثقافة معينة من قبل ثقافة أخرى»¹³.

وفي ظل هذا المنحى يتجلى لنا أن الهيمنة و التسلط على الأخر يحملان إستراتيجية تتخذ السلطة و القوة بوصفهما تشكلاان علاقات النفوذ الحاضرة في فضاء الصراعات والمواجهات المتعددة، وفي مقدمتها الثقافية التي تؤدي التحولات النفسية الاجتماعية، وفي ضوء تفاعل علاقات النفوذ و السلطة (الهيمنة) بغية امتلاك الأخر و فضاءاته؛ كون السلطة حسب مفهوم "ميشيل فوكو Michel Foucault" « موجودة في كل مكان، لا لكونها تحتضن كل شيء، ولكن لأنها تتأتى من كل هذا (...) فهي الاسم المعطى لموقف استراتيجي معقد في مجتمع ما »¹⁴

فمن الواضح إذن أن مصطلح الما بعد الكولونيالي مصطلح له خصوصيته، كما له تشعباته، له تشاكلاته، كما له إشكالاته، إنه مصطلح يتأرجح بين الفترة الزمنية ومدى تغيراتها، علاوة على دراسة المستعمرات السابقة منذ الاستقلال أو منذ الاستعمار، دون تجاهل دراسة الثقافات المختلفة على اعتبار - كما يبدو لنا - إعادة لما هو موجود في منطقة الهامش دون المركز، وعليه نشير إلى أن « مصطلح ما بعد الكولونيالية في ذاته استخدم في البداية للإشارة إلى أشكال التفاعل الثقافي في داخل المجتمعات الكولونيالية في الدوائر الأدبية»¹⁵، وكأننا بوجود حضور للحركات الكولونيالية تتباين ثقافيا في الساحة الأدبية، وبخاصة مع وجود استضعاف لكيان الآخر واستقواء أو استعلاء من قيمة الذات، فعبارة (الأدب ما بعد الكولونيالي) يومئ

لنا بمحطة ما بعد الاستعمار؛ أي بعد تحرر المجتمعات المستعمرة من سلطة المستعمر المسيطر، مع الاشتغال على إعادة بناء صرح الإنتاج الإبداعية الكولونيالية مع مجابهة فكرة التوسيع السلطوي الذي تفرضه الدول القوية على الدول الضعيفة عن طريق إعطاء الأخر فرصة إسماع صوته والتعبير عن رغباته دون أي قناع أو انقسام، ما يقتضي من الذات ألا تكون صامتة تابعة للأخر مستسلمة لسلطوته مما يجعل هنالك توتر وتشابك بين صوت الذات وصوت الموضوع .

وفي ذلك كله يتشابك النسيج التشكيلي للأدب لما بعد الكولونيالي وتتداخل الذات بالموضوع، ويصبح المتدارك النصي حاملا لفاعلية فاعلة في اتجاه التعامل مع مثل تلك الإبداعات التي تشكل بؤرة من الاحتمالات، وأحيزا تتداخل فيه الأصوات: صوت الذات المبدعة، وصوت الوعي بها، وصوت الوعي بموضوع وعيها» فالنصوص التي أنشأها المستعمر قد عملت على وضع الأخر وتأطيره ضمن بنية فكرية واجتماعية وسياسية ولغوية أسهمت في تدليل عقبات السيطرة والهيمنة بالتضافر مع عناصر تتمثل بالهوية، والعرق، الجنس، والنوع واللغة، والجغرافيا»¹⁶.

ولعل استنطاقنا للوحدات اللغوية التي يحملها هذا النص نستكشف مدى سيطرة الغرب على الشرق، وكأننا بالخطاب الاستعماري يقولب الذات الشرقية كيف ما شاء على أساس أن « الرابطة ما بين المعرفة و السلطة هي التي أوجدت صورة الشرقي وطُمت من زاوية ما »¹⁷

ومن هذا المنظور تصبح صورة السلطة صورة للدمار، والسحق المدروس، علاوة على السيطرة، وممارسة القمع على الشرقي الواقف أحيانا وقفة العاجز أمام تلك السلطة- المدمرة - التي تصل أحيانا إلى حد الطغيان، بل ضرب حتى أي ملمح إنساني، فتتجسد عواقبها لا في اللحظة الراهنة فحسب (الحاضر)، وإنما تتعداه- كما ذكرنا آنفا- في شرستها إلى جسد البناء الحضاري للأمم.

وتكون في مقابل ذلك توليد تجارب إبداعية تخص فترة اللحظة الراهنة (فترة الاستعمار)، كما تخص امتداداته الغائرة في تاريخ الأمم (ما بعد الاستعمار).

ومن ثم تكون «النصوص ما بعد الكولونيالية تتبنى هدفا سياسيا أكثر تحديداً وهو الخلطة المستمرة للسلطة السياسية والثقافية للامبريالية؛ لذا فإن ما بعد الكولونيالية ترتبط بالخطابات النسوية والخطابات التي تقوم على أساس طبقي وذلك أكبر من ارتباطها بما بعد الحداثة حتى وإن كانا يعمدان إلى استخدام صيغ أدبية متشابهة»¹⁸.

فالوجود الفعلي للنص لما بعد الكولونيالي لا يمثل المعطى الموقفي بقدر ما ينسج وجوداً يخترق محور الحدث ليعانق الحركة النصية الأكثر ازدهاماً بالذات لتتقاطع فيها الأضواء الدلالية بعد إحضار الحدث - الموضوع - وتبين أبعاده الفعلية عن طريق تعميق حضوره فلو عدنا مثلاً إلى رواية "ياسمينه خضرة" - على سبيل المثال لا الحصر - الموسومة (فضل الليل على النهار) سنجد فكرة الوجود الفعلي لكيان الأنا في حضور الآخر المستعمر، حيث يحمل الأنا خيوط الفجيرة المشحونة بشحنات تعبيرية ودلالية ولاسيما من زاوية البعد السوسيو ثقافي المكون للتعاطي الحواري بينهما ، ويتمثل ذلك على وجه التحديد في ما يلي:

- لما انتقل البطل في الرواية "يونس" إلى العيش مع عمه الصيدلي وزوجته ذات الأصول الفرنسية "جرمان" والتي كانت تعاني الحرمان من الأولاد إذ لم ترزق بهم، ومن ثم قررت إخراج "يونس" من أميته وتعليمه تقنيات القراءة و الكتابة فسجلته في إحدى المدارس الفرنسية مغيرة اسمه من "يونس" إلى "جوناس"، وهكذا بدأ احتكاكه بالأصدقاء الفرنسيين فتعلم منهم الشيء الكثير، فكان له وجود اجتماعي غير الأول، ونمط تفكيري جديد، وعلاقات متسعة، ثقافة جديدة تطبع إنتاج أفكاره... الخ، حتى في مقارنته بين مدن الأنا و مدن الآخر وفي مواضيع جديدة منها الأرض، المرأة... الخ، إما بلسانه أو على لسان الآخرين.

- كما يظهر لنا هذا الوجود أيضا حينما صور لنا "ياسمينه خضرة" تعرف "يونس" / "جرمان" على صديقه الفرنسية "إيميلي" التي أحبها ولم يعقد القران معها لعلاقة مع والدتها .

- ثم العودة بالذاكرة إلى الماضي و استحضار ما كان قابعا في أدراجها مع الأصدقاء والتحرر من الفروقات الاجتماعية والضغائن والأحقاد، وذلك بعد انتقاله إلى "اكس دو بروفانس" عقب انقضاء سنوات الحرب أو الثورة التحريرية الجزائرية مع فرنسا(الاستقلال).

وعليه ولد من اللا متشكل ذاتا أخرى تبلورت من خلالها فاعلية الوجود الذات، لكن وعلى الرغم من ذلك يتعرف الصورة الحقيقية للاستعمار المرتكب لسلسلة من الخروقات في حق المجتمع الجزائري، بل الجرائم التي تسحق الفرد بوعي مدمر، ولا بأس أن نستحضر مقطع من الرواية لتوضيح هذا التوجه « هذه الأرض ليست ملك لكم، إنها ملك الراعي الذي عاش هنا في الأزمنة الغابرة... عليك أن تلقي نظرة على المداشر المجاورة... إنها ترزخ تحت الشقاء والبؤس منذ أن حولتم رجالها الأحرار إلى صف البهائم »¹⁹

لعل المتمعن في هذا المقطع يلحظ الامتداد الحضوري للوعي بحقيقة مفادها استحواذ الآخر- استحواذنا غير شرعي- على الأرض/ الوطن وبسط السلطة والسيطرة عليه وتهميش الأنا - (المالكة الفعلية لتلك الأرض)-ومن ثم تتغير المواقع الوجودية فصاحب الأرض يعاني ويلات الاستيلاء عليها، هي إذن معاناة الغياب والضياع نتيجة للفقدان ،ونجد "يونس" / بطل الرواية ترجم ذلك في وصفه للقرية بأنها « نقيض تام من الرائحة التي تعفن قريتنا حيث نحتضر البساتين تحت الغبار، وتثن أكوأخها تحت بؤس يفوق بؤس حظائر الحيوانات»²⁰

في حين يظهر المغتصب للأرض بمثابة المالك الشرعي لها -المنتصر، المسيطر، ...- الذي عمل على تهيئتها وفق ما يرتضيه مناسبا فجعل المنازل « تتراصف إلى ما لا نهاية، في تدرج جميل، الواحدة وراء الأخرى، بشرفات مزهرة ونوافذ عالية، قارعة الطريق معبدة ومحاطة بالأرصفة »²¹

5 - خاتمة : من خلال ما تقدم يمكننا القول:

ترتبط فلسفة الأدب الما بعد الكولونيالي بالقوة والسياسة والتي لها أثر في المجتمعات المستعمرة إلى يومنا هذا؛ لذا نلحظ أن ما أبدع في هذا المجال الفكري

إما يقدم نصاً مستحدثاً يصور نظرة الآخر للأنا (الغرب/ الشرق)، وإما السعي نحو تخطي ما خلفه الاستعمار من آثار سلبية على المجتمعات جعلها خاضعة له، وذلك من خلال إبراز حقيقة الطبقات المهمشة ومدى معاناتها.

كما أن الأدب ما بعد الكولونيالي أدب ثقافي حيث تناول المجتمعات التي عانت من ويلات الاستعمار رغم الاختلاف الموجود بين الثقافات المتعددة التي تخص كل مجتمع، ورغم كونها مرجعية مركزية يتم عن طريقها إدراك حقيقة تلك الشعوب، وما لها من هرمية في تلك المعاناة.

الهوامش والإحالات:

1 - ماهر شعبان عبد الباري: التدوق الأدبي، طبيعته، نظرياته، مقوماته، معايير، قياسه، دار الفكر ناشرون موزعون، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان الأردن، ط 9، 1440 هـ 2019 م، ص: 17.

2 - علي المصري: في رحاب الفكر والأدب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د ط)، 1998م، ص: 34

3 - رينيه ويلك: ما الأدب؟ ترجمة: عبد النبي اصطيف، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، لبنان، العدد 48 - 1988، 49م، ص: 107.

4 - محمود أمين العالم، عبد العظيم أنيس، في الثقافة المصرية، دار الأمان، الرباط، ط2، ص: 32.

5 - Lucien Goldman, (Genetic structuralism and history of literature), in R. Macksey, e d, the structuralist Controversy (Baltimore) p : 89.

6 - نبيل راغب: النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية، لونجمان ط 1، 2003 م ص: 549.

7 - رامي أبو شهاب: ما بعد الكولونيالية: المنظور النقدي و المقاربة المنهجية، مجلة أبوليس، مج 6، ع 2 جوان 2019 م، ص: 68.

- 8 - إدوار سعيد : الثقافة و الامبريالية : ترجمة كمال أبو ديب ، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، (د ط) ، 2004م، ص: 22.
- 9 - دوغلاس روبنسون :الترجمة و الإمبراطورية : الدراسات ما بعد الكولونيالية ، دراسة الترجمة ، ترجمة تائر ديب ، مجلة نزوى، ع : 45، 2009م ، ص:2.
- 10- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
- 11 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
- 12 - وليد اخلاصي : في الثقافة و الحدائثة ، دار الفاضل للتأليف و الترجمة والنشر، دمشق ط 1، 2002م ، ص: 95.
- 13 - المرجع السابق، ص: 07
- 14 - Michel Foucault, the history of sescuality translated, Robert Hurley –New York; Random, Vintage 1980 –Vol 1.93.
- 15 - بيل أشكروفت، جاريت جريفيت، (آخرون). "دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الأساسية" تر: أحمد الروبي، أيمن حلمي، وآخرون، المركز القومي للترجمة، ط 1، القاهرة، 2010م، ص: 283.
- 16 - رامي أبو شهاب: الرئيس والمخاتلة، خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد الأدبي المعاصر(النظرية و التطبيق)، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط 2013، 1م، ص: 61.
- 17- إدوار سعيد: الاستشراق " المفاهيم الغربية للشرق "، ترجمة : محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1 ، المزيدة ، 2006 م ، ص:76.
- 18- هلين جيلبرت ، جوان تومكينز، الدراما ما بعد الكولونيالية (النظرية و الممارسة) ، ترجمة سامح فكري، مراجعة سامي خشبة ، مركز اللغات و الترجمة ،أكاديمية الفنون المصرية ، مطابع المجلس الأعلى للآثار ، القاهرة، (د ط) ، 2000م، ص: 4.
- 19 - سميحة خضرا، فصل الليل على النهار، تر.محمد ساري، وزارة الثقافة، الجزائر، د.ت، ص:403.
- 20 - المرجع نفسه ، ص: 28.
- 21- المرجع نفسه ، ص: 28.